الفصل

السادس

نماذج رائعة

الجمال ليس في الصورة فقط

قصة ذكر مصطفى صادق الرافعي في كتابه (وحي القلم) قصة عربية بطلها مسلم بن عمران وزوجته، ومضمون القصة أن أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) ذهب إلى البصرة، وحدث أن التقى مسلم بن عمران، ومسلم هذا تاجر شاب عرف بصدقه وأمانته.

صنع مسلم بن عمران لضيفه أحمد بن أيمن مأدبة طعام، ودعا إليها جماعة من الأعيان والتجار والأصدقاء.

كان لمسلم بن عمران ولدان غاية في الحسن، كأنهما لؤلؤتان يتيمتان، وكان أحمد بن أيمن يطيل النظر إليهما مدهوشًا من جمالهما، ومتعجبًا من حسنهما، ولا يكاد يستطيع صرف نظره عنهما.

وكان أبوهما يسارق ضيفه النظر، ويبصر مدى دهشته أمام هذا الحسن، فقال: ما بك يا رجل؟

قال: ما رأيت كاليوم قط، دميتان لم تُفتح الأعين على أجمل منهما، وما أظنك إلا قد أحسنت اختيار أمهما التي أنجبت هذين القمرين، أتزوجت بنت قيصر؟

فقال له مسلم: إذًا ما تقول إذا أخبرتك بأني لا أحب إلا امرأة دميمة، وبدمامتها هذه أصبحت أحب الناس إلي، حتى ملكت قلبي ولبّي، وأصبح لا يساويها بنات قيصر ولا بنات كسرى، فتعجب ابن أيمن مما سمع، ودهش من هذا المقال، وخشي أن هذه الدميمة قد أفسدت حبه لأمهما التي توقع أنها أحسن الناس خلْقًا.

قال ابن أيمن: والله لقد كفرت النعمة، وجحدت الجميل، فما الأمر؟

قال مسلم: الأمر كما ذكرت، فإني لا أحب إلا هذه الدميمة التي أنستني كل جميلة، ولو وصفت لك دمامتها لما صدقتني، إنها في منتهى القبح، ومع ذلك فهي التي أكنّ لها في قلبي كل الحب والحب الصادق.

فقال ابن أيمن: ما أظن يفعل ذلك إلا شيطانًا، وكيف تتحمل أم الولدين حبك لهذه الدميمة، أهي بهيمة لا تعقل؟ أم أنك سحرتها؟ أم فيك ما ليس في الناس؟

أم أنا الذي لا يفقه شيئًا؟

فضحك مسلم، وقال: إن لي خبرًا عجيبًا، فقد كنت أتاجر ما بين الأبلة والبصرة (مدينتان في العراق) وكنت أربح الشيء الكثير، حتى كثر مالي، وأحببت أن أوسع تجارتي أكثر، وكنت شابًّا مكتمل الفتوة، مقبلاً على الدنيا، فقلت: أتاجر في الآفاق البعيدة، وأرى الناس وعاداتهم، وكنت أحب العلم، ودار في خلدي كذلك أن

أجـد الزوجة التـي تناسبني، فـإني لم أجدها في بلـدي، وكانت لي مواصفات دقيقة فيمن أريدها زوجة.

وصلـت إلى مدينة بلـخ (في أفغانستان اليوم) وكان فيها عالم يدعى (أبوعبدالله البلخي) فحرصـت على أن أحضر درسه، وكان قد كتب عنا كتابًا نحن أهل البصرة.

دخلـت مجلسـه، وإذا به يتحـدث عن أمر يهمنـي كثيرًا، كان حديثه عن جمال النساء، فسمعت منه كلامًا لم أسمع ولم أقرأ مثله قط، وحفظت جلّه عن ظهر قلب؛ لجماله وروعته.

قال ابن أيمن: لقد شوقتني لمعرفة مقاله، فماذا قال؟

قـال: يقـول: من المعـاني المهمـة، أن الجمـال درجـات، لكن الإسـلام أصّـل أصلاً جديدًا، فهـو لا ينعت المـرأة بالدمامة، وإنما ينعتهـا (يصفهـا) بالجمـال، ومن ثم، فـلا يمكـن أن نتحدث عن درجـات قبـح المرأة، بل عن درجـات جمالها؛ لأنهـا مهما بلغت من درجـات القبح، فإنها تبقى جميلة، وتتمتع بصفات جمال كثيرة، ثم قال: أليست الجنة عند أقدام الأمهات؟

فـإذا كانت الجنة، وهي أحسن ما نعرف وأجمل ما سمعنا عن الحسن عند أقدام امرأة، فكيف توصف المرأة بالقبح أو بالدمامة؟ وهل يجوز ذلك أدبًا أو عقلاً؟

هل يستطيع إنسان أن يصف أمه بأنها قبيحة أو دميمة؟

تبقى الأم جميلة مهما كان؛ لأنها أم يتعلق بها القلب؛ ولأنها من علمنا الحب.

ومن روعة الإسلام أن رسول الله ﷺ أوصى بالنساء خيرًا، وهو في الرمق الأخير، فقال: «**الصلاة.. الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»[١] **والله الله في النساء**»[٢].

وقال قبل ذلك: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[٣].

فجعل من التعبد الحق رعاية المرأة، وإعطاءها حقها الذي شُرع لها، ثم ذكر الشيخ قلب المرأة الرقيق وعواطفها الجياشة، ويكفي أن قرن معاملة المرأة بالصلاة؛ لأن الزواج نوع من العبادة لله.

ولو أن أمًّا كانت دميمة شوهاء في أعين الناس، فإنها جميلة في أعين أطفالها، بل أجمل من ملكة على عرشها.

إن الجمال الذي يقيس به الناس هو جمال الجسد، وقد يتعلق بعض الناس بالمرأة لأنه رأى صورتها الظاهرية، ولم يَرَ الروح والطبائع والعقل، بل رأى الجسد فقط

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤/٢٦١ رقم ٢٦٦٥٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/٢٣٧ رقم ٢١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨)، بلفظ: «**فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**».

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥١٨٥)، ومسلم (رقم ١٤٦٨).

أليست هذه المسألة أقرب إلى البهيمية والحيوانية؛ لأنها مرتبطة بالغرائز والشهوات؟

نحن لا نلغي الغرائز والشهوات، ولكنها جزء من كلٍّ، وليست كل شيء.

ثم تابع الشيخ قوله: إن جمال المرأة الحقيقي في إنسانيتها، لا في بهيميتها، في روحها لا في جسدها، فلو كان الجسد هو المبتغى فقط، لهبطنا بالإنسان إلى درجة الحيوان؛ لأن القضية قضية جسد وشهوات وغرائز لا غير.

ثم قال: لنتخيّل أن امرأة ظاهرها جميل، لكن أخلاقها سيئة، فهي جاهلة وذات تصرفات هوجاء، ثم لنقارنها بامرأة أخرى أقل جمالاً، لكنها عاقلة وحكيمة ومراعية لحقوق زوجها، لطيفة مؤدبة، أيهما أقرب إلى النفس؟

لا شك أن الثانية أقرب، إلا عند أصحاب الفطر المشوهة والنفوس البهيمية.

الإنسان الذي يرى الجمال صورة فقط، لديه قصور في عقله وفكره.

ليست العينان فقط هما اللتين تقرران أي الشيئين أجمل، لكن الحكم على الجمال يأتي من ثلاثة مصادر:

العين والقلب والعقل: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فدهش أحمد بن أيمن مما سمع، وأخذ يدور في المجلس مما دخل قلبه من روعة الحديث.

يقول مسلم: فنظرت في شروطي في الزوجة التي أريد، فإذا المقاييس قد اختلفت. قلت في نفسي: إن تزوجت يومًا فما أبالي بجمال الصورة وقبحها، بل أريد امرأة كاملة الإنسانية؛ لتعود علي بالنفع في الدنيا والآخرة، وتعينني على تربية الأبناء.

يقول مسلم: ثم رجعت إلى البصرة، وقررت المكوث بها، وبدأت أفكر في الزواج، وفي المرأة التي أريدها، أريدها عاقلة صالحة رزينة، ولا بأس أن تكون ذات حسب ونسب، فبدأت أسأل فلم أجد أسرة ذات حسب كأسرة جد هذين الولدين، وكان تاجرًا أيضًا وسألت هل لديه ابنة؟

قالوا: نعم، ولكن هيهات أن يزوجك ابنته، فقد عرض كبار التجار الأموال الطائلة على هذا الشيخ إلا أنه رفض الجميع.

فقلت: هذه المرأة التي أبحث عنها، إنني أفتش عنها في كل مكان، ولم أعلم أنها قريبة مني، وفي البلد الذي أعيش فيه.

فذهبت إلى الشيخ التاجر، وعرفته بنفسي، ثم قلت له: إنني أريد ابنتك زوجًا لي.

قال: مثلك لا يردّ، ولكنني لا أنصحك بالزواج منها.

فتعجبت منه، وسألته: لماذا؟

قال: إنها مكرمة معززة في بيتها، وأخشى أنك إن أخذتها لم تكرمها، فقلت له: سأكرمها وأعطيها ما تريد.

قال: إن لها مواصفات لا ترضيك، فدعها في بيتها لتبقى به معززة.

قال مسلم: فازداد شوقي للزواج منها، وقلت له: مهما كان من صفاتها، فأنا أريدها، وغايتي جمال النفس والخلق، فقال: على بركة الله.

فأتيته مع ملأ من التجار والأصدقاء.

فقاطعه ابن أيمن: قد عرفنا خبرك مع هذه الحسناء، فقل لنا خبر الدميمة التي أحببتها، ولماذا فضلتها على هذه؟

قال له مسلم: مهلاً، فستنتهي القصة إليها، وأنا لم أعلم بها إلا في العرس، ثم أكمل مسلم حديثه قائلًا: وذهبت مع ملأ من التجار، فخطبنا ابنته، وأكرمنا أيما كرم، ثم قال لي: إن أردت أن تدخل على زوجتك الآن فادخل.

فقلت له: هذا ما أحبه.

وبعد أن ذهب الناس ما زال يحدثني حتى جاءت صلاة المغرب، فصلى ثم أخذ يدعو، ويدعو، وكأن ابنته ستدخل إلى مصيبة لا عرس، وما زال يدعو حتى العشاء، ثم قام، وأخذ بيدي، وأدخلني إلى دار فرشت بأحسن المفارش، وقال: اجلس هنا، وذهب قائلًا: أستودعك الله، وقدم الله لكما الخير، وأحرز لكما التوفيق، ثم أقبل على عجائز أصغرهن في الستين.

فقال ابن أيمن: إن قصتك هذه ستطول حتى الصباح، لكن قل لنا خبر الدميمة الشوهاء؟

قال مسلم: يا ابن أيمن لم تكن الدميمة الشوهاء غير العروس.

لقد كانت في منتهى القبح والدمامة، ولكنني لما تأملتها تذكرت ما قاله الشيخ البلخي، قال: وأسرعت إلي المسكينة، فأكبت على يدي، وقالت: يا سيدي، إني سر من أسرار أبي كتمه والدي، ولم يفضِه لأحد إلا لك، إذ رآك أهلًا لستره عليه، فلا تخيب ظنه فيك، ولو كان الذي يطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها لعظمت محنتي، وأرجو الله أن ترى من أخلاقي وعقلي ما يغير نظرتك لي في حسن الصورة، وسألبي كل ما تأمرني به، ولو أنك آذيتني لرأيت الأذى منك نعمة، فكيف إن وسعني كرمك، وغمرني خلقك؟

إنك لن تعامل الله ﷻ بأفضل من أن تكون سببًا في سعادة امرأة بائسة مثلي، أفلا تحرص يا سيدي، على أن تكون هذا السبب الشريف؟

ثم قامت، وجاءتني بمال في كيس، قالت لي: استر علي، وأبقني زوجة لك، وخذ هذا المال والجواهر والذهب، وتزوج بها ثلاثًا، فقد أباح الله لك ذلك.

فوالله ما انتهت من كلامها هذا حتى ملكت قلبي ملكًا لا تصل إليه حسناء بحسنها ولا جميلة بجمالها، ثم قلت لها: والله لأجعلنك حظي من دنياي فيما يؤثره الرجل من المرأة، ولأضربن على نفسي الحجاب، فلا تنظر نفسي إلى أنثى غيرك.

ثم أتممت سرورها، فحدثتها بما سمعته من الشيخ البلخي، فأيقنت يا أحمد، أنها نزلت مني منزلة هي أرفع المنازل، وجعلت تحسن وتحسن حتى أصبحت كالغصن الذي ازدان بخضرة أوراقه.

وعاشرتها، فوجدتها أكمل النساء وأحسنهن تدبيرًا وأشفقهن على زوج، وإذا راحتي وطاعتي أول أمرها وآخره، وإذا عقلها وذكاؤها يظهران لي من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر، فجعل القبح يقل ويقل، وزال القبح باعتيادي رؤيته، وبقيت المعاني على جمالها، وصارت لي هذه الزوجة جنة الدنيا.

ولما ولدت لي جاءني هذان القمران، فحدثتني أنها كانت لا تزال تدعو الله ﷻ بكرمه ومنّه أن يرزقها أجمل الأولاد، فهذان معجزتان من معجزات الإيمان!

الصبر على الأذى

قصة يُروى أن أبا عثمان النيسابوري، كان ممن يحظى بقبول واسع بين الناس، فكان محبوبًا من قبل أقربائه وأهل بلدته، وفي أخريات حياته جاءه رجل يسأله عن سر هذا القبول والمحبة؟، فقال له: يا أبا عثمان، إنك لست إمامًا ولا خطيبًا ولا أميرًا، وإني لأرى أن الله ﷻ قد وضع لك قبولاً في أرضه ومحبة بين خلقه، فأسلك بالله أن تخبرني بأرجى عمل عملته تظنه سببًا في كل هذا.

فوافق أبوعثمان أن يخبره شريطة ألا يحدث به أحدًا إلا بعد موته.

فقال الرجل: نعم.

قال أبوعثمان: اعلم أخي، أنه قد جاءني ذات يوم رجل أظنه من أهل الخير والصلاح، فقال لي: يا أبا عثمان، إني أريد أن أنكحك ابنتي، فقبلت، فلما دخلت عليها وجدتها امرأة شوهاء عرجاء عوراء لا تحسن الكلام، وليس فيها من الجمال مثقال ذرة، ولم تكن كذلك ذات خلق يشفع لها، ولما رأيتها رضيت بقضاء الله وقدره، وقنعت بهذا النصيب، وقد فتنت بي، فكانت تمنعني كثيرًا من الخروج، ولم يكن لها في قلبي مثقال ذرة من حب، فصبرت عليها خمسة عشر

عامًـا حتى توفاها الله، ولم أكـن أقسو عليها حفاظًا على قلبها، ولم أشكُ حالي إلا لله، واحتسبت في ذلك الأجر منه ﷻ.

فـإن كان قد كتـب لي قبولاً كمـا ذكرت، فإني أرجـو أن يكون بسريرتي هذه.

وفاء زوج

قصة تبدأ قصة هذا الزوج منذ بداية البحث عن زوجة صالحة، فكلف أهله مهمة البحث عن فتاة مناسبة ذات خلق ودين، وقد وجدوا الفتاة المناسبة عند أحد الأقرباء، ولم يتردد ذوو الفتاة في الموافقة، فقد كان صاحبنا يتحلى بأخلاق كريمة وشيم نبيلة تجعله مكسبًا كبيرًا لمن يريد مصاهرته.

تم الزواج وتم الفرح في مناسبة متواضعة، كما هو حال بعض الأسر، التي لا ترى في التبذير والإسراف إلا معصية للرب جل وعلا، وإثقال كاهل الأسرة الجديدة بالديون التي قد تكون سببًا في سوء العشرة في قابل الأيام.

كان الزوجان كعصفورين جميلين، ينعمان بدفء المحبة وطيب العشرة، وتغمرهما سعادة لا تكاد تفارقهما، وتعلق كلٌّ منهما بصاحبه، فلا يكاد يسلو عنه.

مرت ثلاث سنوات، فبدأا يواجهان ضغوطًا من أهاليهما في مسألة الإنجاب، فهناك من تزوج بعدهما، وأنجب، وصار لديه طفل أو طفلان.

أخذت الزوجة تقنع زوجها، وتلحّ عليه أن يذهبا للطبيب، فلعل الأمر بسيط، وينتهي بتوجيهات طبية أو وصفة نافعة.

وعندما ذهبا للكشف الطبي وقع الذي لم يكن في الحسبان، فقد اكتشفت الطبيبة أن الزوجة عقيم، ولن تستطيع الإنجاب، وكل ذلك بقضاء الله وقدره.

بدأت التلميحات للزوج من أهله وقرابته، إلى أن صارحته والدته، وقالت: تزوج يا ولدي، فليس في ذلك ما يريب، إننا نريد أن نرى أطفالك قبل رحيلنا.

فكر صاحبنا في مشاعر زوجته، وما تتعرض له من غمز ولمز، فجمع أهله، وقال لهم: إن العقم الحقيقي هو الأحاسيس والمشاعر وفي الحب العفيف، وأنا ولله الحمد أجد ذلك كله في هذه الزوجة الصالحة، وأنا راضٍ بما قسم الله، فلا تعيدوا لي هذا الموضوع لاحقًا.

عرفت الزوجة مدى التضحية التي قدمها زوجها، فازدادت تعلقًا به، وقامت على راحته وخدمته خير قيام.

وبعد تسع سنوات مرضت الزوجة الحنون، وبدأ عليها الإرهاق الشديد، فقد أصيبت بمرض غريب، وزادت حالتها سوءًا، وبعد مراجعات عدة للمستشفيات تبين أن المرأة تعاني مرضًا خطيرًا، وأن إمكانية الشفاء منه ضئيلة للغاية، والأعمار بيد الله.

وأخبر الأطباء الزوج بأن من الأفضل أن تبقى الزوجة في المستشفى لتحظى بالرعاية الطبية اللازمة حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

قـاوم الزوج هذه الأزمة الخانقـة، وتمالك نفسه حتى لا تنهار أعصابـه، إلا أنـه قـرر أن ينقلها إلـى بيته، ويهيئ لهـا ما يلزم من المعـدات الطبية على نفقته الخاصة، ولو لـزم الأمر أن يقترض من المـال ما يفي بكل هذه المستلزمات، وبالفعل جهز شقته بالمستلزمات الطبيـة اللازمة، واستقدم ممرضة خاصة لتحظى زوجته بالرعاية التامـة، ويقـوم بنفسه علـى رعايتهـا وتمريضها، وتكبـد صاحبنا خسائـر فادحة في عمليـات بيع وقروض وإجـازات بلا مرتب، حتى يشد من أزر هذه المريضة، ويرفع معنوياتها.

كان يقضـي جل وقته معها، فيطعمها، ويسقيها، ويحنو عليها، ويضمها إلى صدره، ثم يحكي لها بعض القصص التي كانت تحبها، كل هذا ليخفف من آلامها.

أحسـت المـرأة بدنوّ ساعـة الـوداع، فأعطت الممرضـة صندوقًا صغيرًا، وطلبت منها الحفاظ عليه وعدم إعطائه لأحد إلا لزوجها بعد أن تموت، وفي ساعة من الليل أزف الوداع، ورحلت هذه المرأة الصالحة عن الدنيا لتترك في قلب زوجها أسى ومرارة لن تمحوها السنون.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ويقول جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

جاء الذي لا رادّ له إلا الله.

وَإذا المنيّـةُ أَنْشبَـتْ أَظْفارَها ... أَلْفَيـتَ كُلَّ تميمَـةٍ لا تَنْفَعُ

انتهت مراسم الوداع، وبقيت الأحزان في قلب الزوج الذي تحول إلى ورقة بالية من أوراق الشتاء.

جاءته الممرضة، وواسته في مصيبته، ثم قدمت إليه الصندوق الصغير، وذكرت أن الراحلة طلبت إخفاءه حتى يتوفاها الله، ثم أقدمه لك.

فتح الزوج المكلوم الصندوق الصغير، فإذا بأول هدية أهداها لها موجودة داخل الصندوق، وهي عبارة عن زجاجة عطر فارغة، ووجد قطعة مستطيلة منقوشًا عليها: (أحبك في الله)، وهذا أعظم حب في الدنيا أن نحب لله وفي الله، ووجد قصاصة ورق كتبت فيها:

زوجي الغالي، لا تحزن على فراقي، فوالله لو كتب لي عمر ثانٍ لاخترت أن أبدأه معك، ولكنك تريد وأنا أريد، والله يفعل ما يريد.

زوجي الحبيب: كنت أتمنى أن أراك عريسًا قبل وفاتي؛ لأرى أبناءك يمشون على الأرض؛ لأني أحبك.

عمتي الحبيبة: لقد أحسنت التصرف حين طلبت من ابنك أن يتزوج؛ لأنه جدير بمن يحمل اسمه من صالح الذرية.

زوجي الحبيب: أرجو أن تبادر بالزواج بعد وفاتي، فلم يبقَ لك عذر الآن، ولا تنسَ أن تسمي أولى بناتك باسمي، واعلم أني سأغار من زوجتك الجديدة حتى وأنا في قبري. مُحبتك.

أبو طلحة وأم سليم

قصة هذه قصة أشبه بالخيال في عصر النبوة، عندما كان الإسلام غضًّا طريًّا، تضرب لنا بطلة القصة (أم سليم) رضي الله عنها وأرضاها أنموذجًا رائعًا للمرأة الصالحة، التي عرفت أن الطريق إلى الجنة هي خدمة الزوج بعد القيام بأمر الله ﷻ.

وقد بشرها الرسول ﷺ بالجنة وهي لا تزال تمشي على الأرض.

فقال رسول الله ﷺ: «**دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة**»[1].

عندما مات عنها زوجها مالك بن النضر، وتردد لخطبتها أبو طلحة، وكان لا يزال مشركًا، فقالت: يا أبا طلحة، إن مثلك لا يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا مسلمة، فلا تصلح لي حتى تسلم، فاشترطت رضي الله عنها أن يكون مهرها الإسلام، وأي مهر أعظم من هذا، إن أعظم ما قدمته أم سليم لزوجها أن هدته للإسلام بعد هداية الله ﷻ، ولذا قيل: لم يكن مهر قط أكرم من مهر أم سليم.

تزوج أبو طلحة من أم سليم، وكان لها ابن من زوجها مالك، وهو الفتى الذي ربته، فأحسنت تربيته، خادم رسول الله ﷺ أنس

(١) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/٣٣٣٣ رقم ٧٦٤٢).

ابـن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وولدت من أبي طلحـة غلامًا آخر، ترك أبو طلحة زوجته، وخرج، وكان ابنه مريضًا.

وفي أثنـاء غياب أبي طلحـة توفي الصغير، فدثرتـه أم سليم، ووضعتـه جانبًـا، وجاء أبو طلحـة في المساء، وسأل عـن الصغير؟، فقالـت: (إنـه أهدأ ما يكـون) كناية رائعـة لتحافظ علـى مشاعر زوجها، وقلبها يتفطر حزنًا على ولدها.

ثـم أطعمـت زوجهـا، وتزينت لـه، إلماحًـا إن كان يرغب فيما يرغـب الرجال من النسـاء، وواقعها تلـك الليلة، وربمـا نام، وبعد ذلـك قالت له: (يا أبـا طلحة، إن الله قد اسـترد وديعته، وإن ابننا قـد لقـي ربه)، وغضـب أبوطلحة من فعـل زوجتـه، إذ كيف تمكنه مـن نفسها، والجنـازة في البيت، وخرج يشكو مـا أصابه إلى رسول الهدى ﷺ، فاستقبله الرسول ﷺ باسمًا، وقال: «**لقد بارك الله لكما في ليلتكما**»[1].

فحملـت الرميصاء بولدهـا عبد الله بن أبـي طلحة من كبار التابعـين، ويقـال: إنه رزق عشـرة أبناء كلّهم ختم القـرآن الكريم، ذرية بعضها من بعض.

والشاهـد في هـذه القصة عزيـزي الزوج وعزيزتـي الزوجة، هـو استقبال الزوجة المسلمة التي تريـد الله والدار الآخرة لزوجها

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٧٠)، ومسلم (رقم ٢١٤٤).

وحرصهـا الشديد علـى راحته وإمتاعه لا لشخصـه، بل لتنال رضا الله ﷻ.

فكيف تمالكت نفسها ﷺ؟ والمصيبة فقْد فلذة كبدها، أيُّ عزمٍ هذا؟! وأي تجلد هذا الذي فعلته الرميصاء؟!

إنهـا لم تولول، ولم تصـرخ، ولم تبعث في طلب الزوج، لم تفعل شيئًا من هذا، بل أوكلت أمرها إلى ربها ﷻ.

ثـم كيف فعلت عند دخول زوجهـا، فلم يلحظ حزنًا؟ أتوقع أن ابتسامـة أم سليم له حجبت ذلك كله، ثـم كيف تزينت، وتجملت؟! أهذا وقت الزينة؟ أهذا وقت التجمل؟!

إنها لم تفعل ذلك إلا لمعرفتها وعلمها وفقهها في عظم حق الزوج، ولذلك جامعها أبوطلحة تلك الليلة، أي نوع من الزوجات هذه؟!

إن بعضـ النساء أو جلّهـن ربما أقامت الدنيـا لإصابة طفلها بالـزكام، وربمـا أرسلت في أثر الزوج، وربمـا اتصلت به، فأمطرته بوابل من العبارات الرمادية: أين أنت؟

أنت لا تستحق أن تكون أبًا، أنت لا تعرف إلا أصحابك، أنت...

لقـد رأت أم سليـم أن إرضـاء زوجهـا هـو السبيـل إلى رضا ربهـا ﷻ، في الوقـت الذي استهترت فيه نساء اليـوم أو جلّهن بهذا الحق العظيم.

وقد تتساءل إحداهن: كأنك لا تعلم بما يفعله الرجال اليوم، فلماذا هذا النصح المضاعف، ونسيت أن تنصح بني جنسك؟

وكأنها تقول: إن كانت نساء اليوم لسن كأم سليم، فإن الرجال كذلك ليسوا كأبي طلحة، وهذا حق، ولكن مهلًا أختي الكريمة، إن حق الزوج لا يسقط بسوء خلقه وكريه معاملته، فإن آسية بنت مزاحم كانت تحت أعتى طغاة الأرض، كان زوجها فرعون الذي يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

والذي يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ومع ذلك، فقد أحسنت معاملته، ويدل على ذلك قولها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

رضي الله عن أم سليم، فلم تكن هذه كل مناقبها، لقد حرصت كل الحرص على الدعوة إلى الله وحسن تربية الولد، فهي التي ذهبت بأنس رضي الله عنه ليخدم رسول الهدى ﷺ، ويأخذ من مدرسة النبوة ما يبلغه جنة الخلد، وهي التي سألت الرسول ﷺ فقالت: «إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ فقال: **نعم، إذا رأت الماء**»[١].

فَتَشَبَّهُوا إنْ لم تكُونُوا مِثلَهُمْ إنَّ التَّشَبُّهَ بِالْكِرامِ فَلاحُ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٢)، ومسلم (رقم ٣١٣).

ثمن التضحية

قصة وفي قصة تداولتها وسائل التواصل الاجتماعي، ذكر كاتب القصة أن شابًّا سعوديًّا تزوج من إحدى قريباته، وبعد أربع سنوات من الزواج قرر الزوجان الذهاب إلى الطبيب لبحث عملية الإنجاب.

أجريت التحاليل الطبية للزوجين، وكانت النتيجة أن الزوجة مصابة بالعقم، وأن إمكانية الإنجاب قد تكون مستحيلة، وكل شيء بقضاء الله وقدره ﷻ.

أخبر الطبيب الزوج على انفراد بهذه النتيجة، فاسترجع الرجل، وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وحمد الله ﷻ، فهو أهل الثناء والحمد، وهو من يقدر الأقدار، ويعلم الأسرار، وكل شيء عنده بمقدار.

فكر الشاب في وقع الخبر على زوجته، فقال للطبيب: سآتي بزوجتي، وأريدك أن تخبرنا سويًّا بأن الأمر بيد الله ﷻ، وأن مسألة عدم الإنجاب تتعلق بي لا بها، وافق الطبيب، وقال: أسأل الله لكما التوفيق، يبدو يا أخي، أن لا سبيل للإنجاب، فقد تكون عقيمًا، والأمل في الله ﷻ، فاحتسب الأجر، واعلم أن هذا الأمر قد يكون خيرًا لك.

استرجع صاحبنا أمام زوجته، وبدت عليه علامات الحزن، إلا أنه رضي بالأمر الواقع بعد أن أوكل أمره إلى الله.

انتشر الخبر بين الأهل والأقارب وعامة الناس أن فلانًا عقيم، ومضت الأيام بل السنوات، وأخيرًا صارحت الزوجة زوجها بأنها تريد الطلاق، وأنها تريد أن ترى أطفالاً يلعبون حولها، ليملؤوا حياتها بشرًا وسعادة.

قال الرجل: إن الله ﷻ يبتلي عباده بمثل ما ترين، وأنا أريدك أن تصبري، ولعل الله ﷻ أن يجعل لنا مخرجًا.

قالت: أنا أحبك، وأريد الجلوس معك، لكنني أيضًا أريد أن أشعر بنسائم الأمومة، ورائحة الأطفال الجميلة.

سأصبر معك هذه السنة، لعل الله أن يرزقنا، فقال: لعله خير إن شاء الله، وفي تلك السنة أصيبت الزوجة بفشل كلوي جعل صحتها تنهار وبسرعة، وساعد على ذلك تعبها النفسي لحرمانها من الأطفال، وأخذت تلقي باللائمة على زوجها، وأنه سبب كل ما حصل لها.

حاول الزوج تهدئتها، وذكرها بالله ﷻ، وقال: سأبحث لك عن كلية خارج المملكة، وسأعود قريبًا إن شاء الله.

بعد يوم أو يومين من فراقه لها اتصل بها، وبشرها بأنه حصل على شاب سيعطيها كليته، وسنصل في أقرب وقت، وقبل العملية

بيوم أتـى المتبرع - وهو من جنسية عربية - وسلم على الزوج ووالد الزوجة وإخوانها، ودعوا له بالتوفيق.

استأذن الزوج زوجته، وقال: إنه سيغيب بضعة أيام لأمر مهم، وأنه ملزم بسفر خارج المملكة لظروف العمل.

فقالـت: ستتركنـي في أحلـك الظـروف؟ لا يفعل هـذا زوج يحب زوجته.

تمت العملية، ونجحت، والحمد لله، وبشر الطبيب المرأة وذويها بأن الحالة ممتازة، وستتماثل المرأة للشفاء في الأيام القليلة القادمة.

جـاء الـزوج المسكين، وقـد بدت علـى وجهه علامـات التعب والإرهـاق، فقد كان المتبرع الحقيقي بكليته، ولم يكن حضور الرجل الغريب غير تمثيلية من صنع الزوج، ولم يكن يعلم بذلك الأمر أحد غير الطبيب.

وبعـد هذه الحادثة بعدة أشهر تحمل الزوجة بإذن الله، وتضع مولودها البكر، وتعمّ الفرحة الأهل والأقارب والجيران.

يقـول الكاتـب: في أثناء هـذه الأحداث وخلال هـذه السنوات استغـل الزوج أوقات الفـراغ ليكمل الدراسـة في إحدى الجامعات، فحصل على درجـة الماجستير ثم الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، والأهم من ذلك أن أتم حفظ كتاب الله خلال تلك المدة.

يقـول الكاتـب: وفي ذات يوم دخلت المرأة مكتـب زوجها الذي كثـيرًا مـا كان يقرأ، ويكتب فيـه، فوجدت مذكـرات زوجها اليومية على مكتبه، واكتشفت ما كان خافيًا عليها طيلة عشر سنوات مضت، فكانـت هذه الزوجة لا تكاد ترفع طرفها إليه حياءً منه، وكانت كلما رأته تبكي بكاءً مرًّا، حتى يمسح دموعها.

تقـول هذه الزوجة: علمت أن الله ﷻ جزاه بصبره في الدنيا، وللجنةُ خيرٌ وأبقى.